Van Yüzüncü Yıl Üniversitesi
Sosyal Bilimler Enstitüsü Dergisi
Van Yüzüncü Yıl University
The Journal of Social Sciences Institute
Yıl / Year: 2020 - Sayı: Salgın Hastalıklar Özel Sayısı
Issue: Outbreak Diseases Special Issue
ISSN: 1302-6879 - Sayfa/Page: 539-556

VAN YÜZÜNCÜ YIL ÜNİVERSİTESİ
SOSYAL BİLİMLER
ENSTİTÜSÜ
1982

التوظيف الأدبي للأوبئة

Salgınlar ve Edebi Yansımaları

Epidemic and Literary Reflections

• **Murat KAFİ***
• **Mehmet Şirin ÇIKAR****

* Öğr. Gör., Van Yüzüncü Yıl Üniversitesi İlahiyat Fakültesi, Arap Dili ve Belağatı Anabilim Dalı
Lecturer, Van Yüzüncü Yil University, Faculty of Divinity, Department of Arabic Language and It's Rhetoric
Van/Turkey
muradhasankafi@gmail.com
ORCID:0000-0003-1101-7257

** Van Yüzüncü Yıl Üniversitesi İlahiyat Fakültesi, Arap Dili ve Belağatı Anabilim Dalı
Prof. Dr., Van Yüzüncü Yil University, Faculty of Divinity, Department of Arabic Language and It's Rhetoric.
Van/Turkey
ORCID: 0000-0002-5798-0439

Makale Bilgisi | Article Information
Makale Türü / Article Type:
Araştırma Makalesi/ Research Article
Geliş Tarihi / Date Received:
10/06/2020
Kabul Tarihi / Date Accepted:
08/07/2020
Yayın Tarihi / Date Published:
15/07/2020

Atıf: Kafi, M. & Çıkar. M. Ş. (2020). Salgınlar ve Edebi Yansımaları. *Van Yüzüncü Yıl Üniversitesi Sosyal Bilimler Enstitüsü Dergisi*, Salgın Hastalıklar Özel Sayısı, 539-556

Citation: Kafi, M. & Çıkar, M. Ş. (2020). Epidemic and Literary Reflections. *Van Yüzüncü Yıl University the Journal of Social Sciences Institute,* Outbreak Diseases Special Issue, 539-556

Öz

Edebiyatın diğer ilimlerle kopmaz bir bağı vardır. Toplumun tüm bireylerini etkileyen ve bu yüzden de yakından takip ettiği sağlık ilimlerinde bu bağ çok bariz bir şekilde ortaya çıkmaktadır. Bu çalışmamızda amacımız özellikle salgın dönemlerinde edebiyat ile uğraşan kişilerin gönüllü bir şekilde şiir, tiyatro, hikaye ve romanlarında bu soruna yaklaşımlarını ortaya koymak olacaktır. Yer yüzünde, zaman-mekandan soyut bir şekilde hatta yayıldığı, ortaya çıktığı bölgelerde gelişmişlik düzeyini de yerle bir ederek yayılan salgın hastalık çeşitleri hep olagelmiştir. Salgının kaynağı, belirtileri, etkileri, tanım yolları ve buna karışı yapılan yanlışlar edebi sanatlarda kendini gösterir ve sanatçı dilsel tüm becerilerini kullanarak konuyla ilgili yaratıcılığını ortaya koyar. Bu çalışmada ele alınan birkaç salgın örneğinde ortaya çıktı ki, insanın rolü, salgınların ortaya çıkması ve yayılması konusunda çok fazladır. İşte tam böylesi ortamda, sanatçı kişi de sanatını, salgın dönemlerinde koruyucu gayretleri destekleme konusunda konumlandırabilir. Çok erken dönemlerde Mütenebbi'nin yazdığı Kasidetü'l-humma ve çağdaş G. G. Marquez'in Kolera Günlerinde Aşk bu duruma örnek verilebilir. Son dönemde tüm dünyayı etkisi altına alan korona salgının şimdiye kadar yaşanmış salgınlarda çok farklı etkileri olduğu açıktır. Toplumu bilinçlendirmede kendilerine görev biçen sanatçıların çalışmaları aynı zamanda yeni bir salgın edebiyatının ilk tohumu olabilecek niteliktedir.

Anahtar Kelimeler: Veba, salgın, korona, kolera, salgın edebiyatı.

Abstract

Literature has an indispensable bond with other sciences. This bond affects all the members of society, which is the reason why it emerges very clearly in health sciences that are closely followed by literature. Our aim in this study is to reveal the voluntarily approaches to this epidemic problem in poetry, theater, story, and novels especially during this period by the people who deal with literature. Types of epidemics that have spread on the earth, in an abstract way even from time-space, and in the regions where it has emerged and destroyed the level of development have always been experienced. With the emergence of the biological structure of the epidemic, works in the field of literature, especially including protection and treatment methods, appear. The source of the epidemic, its symptoms, effects, ways of definition, and the mistakes made against it are manifested in literary arts and the artist reveals his creativity by using all his linguistic skills. While raising awareness of the society on the one hand, it also tries to effectively process the epidemic with its history and results. In the literary arts such as poetry, novel, theater, which are used in the period of health-related crises, the person who reflects his social or personal feelings in accordance with his life experience is accepted as an effective artist. In several examples of epidemic discussed in this study, it turned out that the role of people is great in the emergence and spread of outbreaks. In such an environment, the artist can also position his art in supporting protective efforts during epidemic periods. It is clear that the corona epidemic, which has recently influenced the whole world, has had very different effects on outbreaks experienced so far. The works of artists who have been assigned to raise awareness of the society are also the first seeds of a new epidemic literature.

Keywords: Plague, epidemic, corona, cholera, epidemic literature.

مقدمة

ما زال الوقت مبكرًا لترسيم الخطوط العريضة لمصطلح" أدب الأوبئة"، لأنّ الأوبئة ليست دائمة الحدوث والانتشار، بل هي أزمات موضعية وآنية، هي وليدة فترات تاريخية معينة، ضمن أقاليم جغرافية محددة، عكستها نتاجات الكتّاب والأدباء ممّن أرّخوا بكتاباتهم الواقع الذي عاصروه، ناقلين أحداثه بأمانة وموضوعية، موثقين كلّ ما ألّم بمجتمعاتهم من وقائع وأحداث مختلفة معتمدين على النزعة التسجيلية التي عكسوا من خلالها صور حياتهم، ومن ضمنها صور الأوبئة والجوائح المرضية. وتكاد تكون الحصيلة الكمية لنتاجات موضوع الأوبئة متواضعة نسبيًّا مقارنة مع باقي الموضوعات الأدبية الأكثر حظًّا ووفرة في المخزون الأدبي العالمي. والأدب لطالما بقي محتفظًا بدوره الريادي المواكب لتاريخ البشرية وأحوال بيئاتها، فكان مؤرخًا أمينًا لحوادثها ونوائبها ونوازلها من حروب، وأمراض وأوبئة وجوائح مرضية فتكت بالكائن البشري والحيواني. وكان لحضور وباء الكورونا (Covid 19) في الربع الأول من السنة الحالية دور رئيس في إيقاظ ذكريات العالم حول موضوع الأوبئة قديمها وحديثها. **وقد** عرّفته منظمة الصحة العالمية**:** مرض كوفيد-19، هو مرض معد يسببه آخر فيروس تم اكتشافه من سلالة فيروسات كورونا. ولم يكن هناك أي علم بوجود هذا الفيروس الجديد ومرضه قبل بدء تفشيه في مدينة ووهان الصينية في كانون الأول/ ديسمبر 2019. وقد تحوّل كوفيد-19 الآن إلى جائحة تؤثر على العديد من بلدان العالم. تتمثل الأعراض الأكثر شيوعاً لمرض كوفيد-19 في الحمى والسعال

الجاف والتعب. وقد يعاني بعض المرضى من الآلام والأوجاع، أو احتقان الأنف، أو ألم الحلق، أو الإسهال. وعادة ما تكون هذه الأعراض خفيفة وتبدأ تدريجياً. ويصاب بعض الناس بالعدوى ولكن لا تظهر عليهم سوى أعراض خفيفة جداً. ويتعافى معظم الناس (نحو 80%) من المرض دون الحاجة إلى علاج في المستشفى. وتشتد حدة المرض لدى شخص واحد تقريباً من كل 5 أشخاص يصابون بعدوى كوفيد-19 حيث يعانون من صعوبة في التنفس. وترتفع مخاطر الإصابة بمضاعفات وخيمة بين كبار السن، والأشخاص الذين يعانون مشاكل طبية أصلاً، مثل ارتفاع ضغط الدم أو أمراض القلب والرئتين، أو داء السكري، أو السرطان. ولكن أي شخص يمكن أن يُصاب بعدوى كوفيد-19 المصحوبة بأعراض شديدة. وحتى الأشخاص المصابين بأعراض كوفيد-19 الخفيفة جداً يمكن أن ينقلوا الفيروس إلى غيرهم. ويجب على جميع الأشخاص المصابين بالحمى والسعال وصعوبة التنفس الحصول على العناية الطبية، أياً كانت أعمارهم.[1]

تسعى هذه الدراسة إلى تقديم صورة تأريخية لبعض من صور الأوبئة التي ضربت البشرية في أزمنة متفاوتة؛ بغية الوقوف على فكرة توظيف الأدب موضوعَ الأوبئة في نتاجات مُبدعيه، ومعرفة كيفية تجلّي هذا الموضوع في الحقل الأدبي كظاهرة مجتمعاتية صحية طالتِ الإنسان والبيئة والحيوان في عصور مختلفة، كما تسعى الدراسة إلى الوقوف على الآلية التي تعامل بها أهل الأدب مع ظاهر الوباء ضمن معطيات الزمان والمكان، ونوعية الوباء وآثاره القريبة والبعيدة.

ستحاول الدراسة الإجابة عن عدد من الأسئلة التي تشكل أجوبتها مفاتيح مهمة للولوج إلى عصر كل وباء بمسمّاه، لمعاينته، ومعرفة أعراضه، وإحداثيات فتكه بالجنس البشري، ومنهجية تعامل الأطباء، والأدباء، وأفراد المجتمعات معه، مع التركيز على انعكاساته في نتاجات الأدب- العربي والغربي-؛ وذلك لرصد نجاعة الأدب في الإسهام في الدور التوعوي المنوط به في نقل توصيات القطاع الصحي إلى عامة الناس، ونشر الإرشادات الصحية والاجتماعية التي تشكل حاجزًا مهمًا يصدّ موجات تفشي الوباء. من الأسئلة التي ستركّز عليها الدراسة: كيف وظّف الأدب موضوع الأوبئة؟ وما نوعية العلاقة المحتملة بين الطب والأدب؟ وما دور الأدب في عصر الأوبئة والجوائح المرضية؟ وهل نقل الأدب الصورة الطبية للوباء إلى جانب صورته الاجتماعية؟. ولأجل ذلك ستعتمد الدراسة على المنهج التأريخي في رصد الأوبئة التي طالت البشرية عبر عصور مختلفة، كما ستلجأ إلى المنهج الوصفي التحليلي في تعاطيها مع الوباء كظاهرة اجتماعية صحية تستلزم منّا توصيفها طبيًّا وعلميًّا، وتحليل آثارها وتبعياتها. وستغلب النزعة العلمية الطبية والبيولوجية على هذه الدراسة على مستوى المصطلحات والمفاهيم والأعراض والتوصيفات؛ لما تحمله هذه النزعة من مقدرة على رصد التعالقات الأدبية والطبية التي لُوحِظ تقاطعها في حقلي الطب والأدب. وسيُصار إلى تمهيد تعريفي بسيط لمصطلحين اثنين: (الوباء، الجائحة)؛ لكي ينتَقَل بعدها إلى استقراء المنهجية التي اعتمدها الأدب في تعامله مع أوبئة عصوره وجوائحها عبر بضعة أمثلة منتقاة من الفنون الأدبية. وستحاول الدراسة أن تخلص إلى عدد من النتائج والتوصيات التي قد تسهم في تسليط الضوء على أهمية البدء في فرز الخطوط الرئيسة العريضة لمشروع أدب الأوبئة المحتمل.

بدايةً، حريّ بمثل هذا النوع من الدراسات الأدبية/ الطبيّة أن تقف على فرز مفاهيمي دلالي لبعض المصطلحات المتعلقة بالعنوان الرئيس، فالوباء والجائحة كمصطلحين

[1] (موقع منظمة الصحة العالمية (https://www.who.int/ar/emergencies/diseases/novel-coronavirus-2019/advice-for-public/q-a-coronaviruses، تاريخ الدخول: 29.05.2020/ 15:30).

ليستا على القدر نفسه من الدلالة العلمية الحيوية والاجتماعية في الحقل الطبّي. لذلك لا بدّ من الإجابة عن السؤال الآتي: ما الفرق بين الوباء والجائحة؟.

لغةً، ذكر صاحب لسان العرب ابن منظور(ت. 711 هـ) المفردة وباء ضمن المادة المعجمية الثلاثية(وَبَأ)، فقال: الوَبَأُ: الطاعون بالقصر والمدّ والهمز، وقيل هو كل مرض عام، وجمع الممدود أوبية، وجمع المقصور أوباء. وأرض وَبِيْئَة ومُوبِئَة ومَوبُوءَة: كثيرة الوباء. والاسم البِئَةُ إذا كثُر مرضها. ويقال: استوبأَها: اِستوخَمَها. والوباء الذي يفسد له الهواء فتفسد به الأمزجة والأبدان.(ابن منظور، من دون تاريخ: مادة وَبَأ).

أمّا مفردة الوباء اصطلاحًا، فقد وردت في معجم اللغة العربية المعاصرة ضمن الجذر(وَبَأ)، وبُؤَ يُوبُؤ/وباءً ووباءةً فهو وبِيء. وبُئَت الأرض: كثر فيها الوباء، وبِئ البلدُ: كثر فيه الوباء، معسكرٌ وَبِئٌ. أوبَأ مكان المعركة: صار وبيئًا، أي كثرت فيه الأمراض العامة الفاشية كالطاعون وغيره. وموبُوء: اسم مفعول من وَبِئ: مصاب بالوباء، موبوء بالشيء: متعفّن به. والوباء(مفرد) جمعه أوباء: كل مرض شديد العدوى، سريع الانتشار من مكان إلى مكان يصيب الإنسان والحيوان والنبات، وعادة ما يكون قاتلًا كالطاعون. والوباء الموضعي: وباء محدود الانتشار لا يتجاوز المزرعة أو المنطقة الجغرافية. ومرض وبائي: مرض سريع الانتشار، مهاجم لأعداد كبيرة من البشر أو الحيوانات في وقت واحد، ضمن منطقة أو إقليم واحد. ومنه: التهاب الكبد الوبائي: مرض ينتج عن الإصابة بفيروس يؤدي إلى التهاب الكبد، أعراضه الحمّى والضعف، وفقدان الشهية والقيء واصفرار الجلد والصّفراء، وتنتقل عدواه عن طريق الغذاء المبوث ونقل الدم الملوث أو الحُقن الملوثة. علم الأمراض الوبائية: أحد فروع الطبّ الذي يدرس الأمراض الوبائية. والوبائيات مصطلح جمعي، مفرده: وبائية، أمراض شديدة العدوى سريعة الانتشار من مكان إلى مكان، تصيب الإنسان والحيوان والنبات.(عمر، 2008: الجذر: وبأ)

وفي لفظة جائِحَة ذكر صاحب لسان العرب ضمن مادة(جَوح): الجَوحُ: الاستئصال، من الاجتياح، جاحتهم السنة جوحًا وجِيَاحةً: استأصلت أموالهم، وقيل: سنة جائحة: جَدْبَة. والجَوحَة والجَائِحَة: الشدّة والنازلة العظيمة التي تجتاح المال من سنة أو فتنة. وكل ما استأصله: فقد جاحَهُ واجتاحَه. وجاحَ اللهُ مالُه: أهلكهُ بالجائحة، والجائحة المصيبة التي تحلّ بالرجل في ماله فتجتاحه كله. والجائحة تكون بالبَرَد المِحْرق أو الحرّ المِفْرط حتى يبطل الثمن، والجائحة كذلك: آفةٌ تجتاح الثمر سماويةٌ، وأصل الجائحة السنة الشديدة تجتاح الأموال. وقيل الجائح هو الجراد(ابن منظور، من دون تاريخ: الجذر: وَبَأ). اصطلاحًا، جاء الجذر(جوح) ليدل على معاني المصائب والجدب، فجائحة مفرد جمعه جائحات وجوائح: داهية ومصيبة تحلّ بالرجل في ماله فتجتاحه كله، ويقال: أصابته جائحة هذا العام، كما يقال: رفع الحوائج أشدّ من نزول الجوائح، سنة جائحة: جَدْبة،غيراء، قاحلة(عمر، 2008: الجذر: وبأ).

وقد مايز المعجم الطبي العالمي الموحد بين المصطلحين السابقين؛ فلفظة الجائحة Pandemic جاءت في هذا المعجم مختلفة عن لفظة الوباء Epidemic (الخيّاط، 2009: 663-1490) ، فالجائحة جاءت – من خلال التعريفات السابقة- بمعنى المصيبة والبلاء والجدب، وهي عامّة، تطال الإنسان والأرض، في حين لفظة وباء أكثر التصاقًا بالأمراض، ويؤخذ من لفظة الوباء دلالات المرض المتفشي سريع الانتشار، ذي العدوى الفتاكة، وتطال الأجناس الحية التي تسكن الأرض على اختلافها، وقد اقترنت هذا اللفظة بمرض الطاعون كما مرّ معنا أعلاه. وبناء على الفرز المفاهيمي المصطلحاتي السابق نجد اليوم منظمة الصحة العالمية تقدّم لمرض الكورونا الفايروسي المصطلح وباء.

بعد هذا التقديم التعريفي لمصطلحي وباء وجائحة، تعمد الدراسة إلى استقراء نماذج أدبية لظواهر وبائية مختلفة، أصابت البشرية في مراحل زمنية مختلفة، وستنهض

الدراسة ببعض صور هذه الظواهر الوبائية للوقوف على تجليّات الأوبئة في الحقل الأدبي، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ غالبية الأدباء- قديمًا وحديثًا- كانوا حريصين على هضم الأبعاد الطبية للوباء قبل الخوض فيه أدبيًا، وقليل منهم اعتمد على حسّه التشخيصي حين يكون هو ضحية الوباء كالمتنبي(ت. 354 هـ) في قصيدته عن الحمّى، وشكسبير(ت.1616 م) في مسرحيته هاملت حين عاين المرض عبر حالة شخص قريب له، أو كما فعلت الشاعرة العراقية نازك الملائكة(ت.2007م) في قصيدتها عن الكوليرا حين عاصرت وباء الكوليرا مشاهدةً وهو يضرب أهل مصر ويحصد أرواحهم. وهذا يؤكد على أنّ الأدب لا ينفصل عن المشاعر الفردية الوجدانية أو الجماعية، وهو يرصد وقائع المجتمعات ونوازلها على اختلافها. بينما نجد أدباء ورجال دين ومفكرين قد نقلوا صور الوباء نقلًا حسيًّا فوتوغرافيًّا لمشاهدات حيّة كانوا قد شهدوها معاصرةً. وما يهمنّا هو الانعكاس الأدبي لتجليات الأوبئة في النتاجات الأدبية، وكيف أسهم الأدب في عملية التعاطي مع الوباء كظاهرة اجماعية طارئة من جهة، وكيف وظّف فنونه المختلفة في تأريخ هذه الظاهرة وتقديمها للمجتمعات – في زمنها الحقيقي وفي الأزمنة اللاحقة- من الناحيتين الطبية والتوعوية من جهة موازية.

في الأدب العربي القديم، في حقل الشعر، إذا ما قرأنا قصيدة المتنبي التي قالها وهو تحت وطأة وباء الحمّى، نجده يقترب من التشخيص الطبّي/ السريري لحالته، فيفرز أعراض حمّاه على أكثر من مستوى؛ كالشكاية، زمن الإحساس بالتعب، مواعيد مداهمة الحرارة جسده، الوهن، الأرق...إلخ. ولو نُقِلَت أبياته التي قالها عن الحمّى إلى طبيب اختصاصي في زمننا هذا لكان النقلُ كفيلًا بتحديد نوع الحمّى التي شلّت حركته، وقضّت مضجعه. أُصيب المتنبي بالحمى وهو يهمّ بالرحيل عن مصر سنة 348ه (صالح، و: محسن، 2014، ص 3-4-5) ، والشعراء العرب عادة في الزمن القديم ما كانوا ليحددوا نوع الحمّى التي يُصابون بها، والحمّى عادة في أشعارهم تظهر أعراضها في الليل زيادة عمّا تظهر عليه في ساعات النهار. ومن الناحية الطبية يُعدّ ارتفاع درجة إجراءً وقائيًّا يتخذه الجسم ضد الجرثومة المغيرة التي لا تعيش ولا تتكاثر في درجة حرارة عالية، كما أن سرعة سريان الدم الناتج عن ارتفاع الحرارة تساعد في القضاء على هذه الجراثيم. والحمّى على أنواع، نذكر منها: الحمّى القرمزية، والحمّى الصفراء، وحمّى الملاريا، والروماتيزمية، والفحمية، والمالطية، وحمّى الأرانب، وحمّى القراد...إلخ.

بداية، سنقرأ أبياته عن الحمّى التي تعكس الحالة الفيزيولوجية والوجدانية لشخصه، لنقف بعدها عند مقاربات تشخيصية بين شكاياته وأعراض الحمّى التي يمكن أن يكون أُصيب بنوع من أنواعها، يقول: (المتنبي، 1983، 484-485):

أَقَمتُ بِأَرضِ مِصرَ فَلا وَرائي " " تَخُبُّ بِيَ المَطِيُّ وَلا أَمامي
وَمَلَّنِيَ الفِراشُ وَكانَ جَنبي " " يَمَلُّ لِقاءَهُ في كُلِّ عـــــام
قَليلٌ عائِدي سَقِمٌ فُؤادي " " كَثيرٌ حاسِدي صَعبٌ مَرامي
عَليلُ الجِسمِ مُمتَنِعُ القِيامِ " " شَديدُ السُكرِ مِن غَيرِ المُدامِ
وَزائِرَتي كَأَنَّ بِها حَياءً " " فَلَيسَ تَزورُ إِلّا في الظَلامِ
بَذَلتُ لَها المَطارِفَ وَالحَشايا " " فَعافَتها وَباتَت في عِظامي
يَضيقُ الجِلدُ عَن نَفسي وَعَنها " " فَتوسِعُهُ بِأَنواعِ السِقامِ
إِذا ما فارَقَتني غَسَّلَتني " " كَأَنّا عاكِفانِ عَلى حَرامِ
كَأَنَّ الصُبحَ يَطرُدُها فَتَجري " " مَدامِعُها بِأَربَعَةٍ سِجامِ
أُراقِبُ وَقتَها مِن غَيرِ شَوقٍ " " مُراقَبَةَ المَشوقِ المُستَهامِ
وَيَصدُقُ وَعدُها وَالصِدقُ شَرٌّ " " إِذا أَلقاكَ في الكُرَبِ العِظامِ
أَبِنتَ الدَهرِ عِندي كُلُّ بِنتٍ " " فَكَيفَ وَصَلتِ أَنتِ مِنَ الزِحامِ
جَرَحتِ مُجَرَّحًا لَم يَبقَ فيهِ " " مَكانٌ لِلسُيوفِ وَلا السِهامِ

غالب الظنّ أنّ الحمّى التي أصابت المتنبي كانت الحمى الصفراء؛ نظرًا إلى إحداثيات المكان والقارّة من جهة، ونظرًا إلى تصوير المتنبي أعراض هذه الحمى من جهة موازية. فمصر منطقة إفريقية فيها زخم سكاني، ويكثر فيها الذباب والبعوض. ونسوق التوصيف العام للحمى الصفراء كما دونتها منظمة الصحة العالمية: الحمّذى الصفراء Yellow feverمرض نزفي فيروسي حاد ينتقل عن طريق البعوض المُصاب بالعدوى. وتشير كلمة «الصفراء» في اسم المرض إلى اليرقان الذي يصيب بعض المرضى .وتتضمن أعراض الإصابة بالحمى الصفراء ارتفاع درجة الحرارة، والصداع، واليرقان، وألم العضلات، والغثيان والتقيؤ، والإجهاد. وتظهر أعراض وخيمة على نسبة صغيرة من المرضى المصابين بالفيروس، ويموت نصفهم تقريباً خلال 7 إلى 10 أيام. ويتوطّن الفيروس في المناطق المدارية بالقارة الأفريقية وأمريكا الوسطى والجنوبية. وتحدث أوبئة الحمى الصفراء الكبيرة عندما ينقل المصابون بالمرض الفيروس إلى مناطق مُكتظَّة بالسكان، ينتشر فيها البعوض بكثافة عالية، ولا يتمتع أكثر الناس فيها بالمناعة أو تقل مناعتهم بسبب عدم التطعيم. وفي هذه الحالات، ينقل البعوض الحامل للعدوى الفيروس من شخص إلى آخر.[2]

لقد أبدع المتنبي في تقديم تقرير طبي مفصل عن حالته الصحية عبر أبياته السابقة، وأحسن في توظيف لغته الشعرية الفذّة لأجل فرز معطيات حمّاه على مستوى المشاعر الجسدية والروحانية التي تناوبت على إيلامه، لقد استطاع معاينة جسده معاينة سريرية، وكأنه طبيب متمرّس يحسن سؤال مريضه، ومريضه على دراية فائقة وملمّة بمرضه وبأبعاد تأثيراته الفيزيولوجية. فكان لسان حال المتنبي(اللسان الشعري) بديلًا موضوعيًّا عن طبيب محيط إحاطة كاملة بالداء؛ بمعنى آخر، يمكن القول إنّ القصيدة كانت بين أطراف ثلاثة، الشاكي/ المخاطِب، والحمّى الشكوى/ الخطاب، واللائمين أو المهجو أو المتلقين وهم يقومون مقام المخاطَب(غرض القصيدة). والحالة المرضية (وباء الحمى) جاءت مُوَظَّفةً في شعر المتنبي عبر القيمة الأسلوبية للأفعال المتكررة في القصيدة، مقابل انخفاض الصفات الاسمية(صالح، و: محسن، 2014: 20 وما بعدها)؛ وهذا دليل واضح على الحالة الحركية النشطة لأعراض الحمى وسط ضعف حركي أبداه الشاعر إزاءها، فالأفعال المنسوبة للحمّى مثل:(تزور، عافتها، وصلتِ، جرحتِ، فتوسعه...)، تعبّر عن شدّة الحدث (وباء الحمى) بقيمة انفعالية واضحة، تُظهِر الشاعر في حال مستسلمة للأعراض الطارئة على جسده، فتكرار الأفعال قدّم صورة شعرية/ طبية عن أثر الحمّى في جسده، كما أسهم في منح القدرة على تشخيص نوع الوباء/ الحمى التي استوطنت جسده.

في الشعر العربي الحديث، نقرأ قصيدة نازك الملائكة عن وباء الكوليرا، وفيها وظّفت الشاعرة الراحلة مشاهد حيّة عاصرتها حين ضرب هذا الوباء مصر، واستطاعت أن تمسح بيانيًّا أهوال الموت المخيمة على أهل مصر عبر لغة شعرية تأريخية، اختارت لها نمط قصيدة الشعر الحرّ. صوّرت نازك في قصيدة الكوليرا مشاعرها وأحاسيسها نحو مصر حين داهمها وباء الكوليرا عام 1947، ويُظنّ أن العدوى انتقلت إلى مصر من الجنود الإنجليز العائدين من الهند إلى مصر في الفترة التي كانت فيها مصر مستعمرة بريطانية. ورصدت الصورة السمعية الكامنة في صورة بصرية؛ إذ حفرت أصوات وقع أرجل الخيل وعجلات العربات التي تنقل قتلى الكوليرا، حفرت في ذاكرتها السمعية صوت الموت، وكانت أول مرة تسمع فيها صوت الموت. تقول الشاعرة(نازك الملائكة، من دون تاريخ: 37-42):

---

[2] (موقع منظمة الصحة العالمية: **الحمى الصفراء** Yellow fever، www.who.int/ar/news-room/fact-sheets/detail/yellow-fever//:http، تاريخ الدخول: 30.05.2020، 20:25).

سكَن الليلُ
أصغِ إلى وَقْعِ صَدَى الأنَّاتْ
في عُمْقِ الظلمةِ، تحتَ الصمتِ على الأمواتْ
صَرخَاتٌ تعلو تضطربُ
حزنٌ يتدفقُ يلتهبُ
يتعثَّر فيه صَدى الآهاتْ
في كل فؤادٍ غليانُ
في الكوخِ الساكنِ أحزانُ
في كل مكانٍ روحٌ تصرخُ في الظُلُماتْ
في كلِّ مكانٍ يبكي صوتْ
هذا ما قد مَزَّقَهُ الموتْ
الموتُ الموتُ الموتْ

هذه الأسطر الشعرية المنثورة خليط من مشاعر الحزن والألم الذي قضّ مضاجع أهل مصر بسبب فاجعة جائحة الكوليرا، فالموت يملأ المكان ولا صورة سواه؛ ولذلك لا غرابة نجدها في تعمّد الشاعرة ،مرغمةً، على تكرار كلمة الموت في المقطع الشعري السابق؛ لتعبر عن سطوة الموت أمام ضعف الحياة، فمرض الكوليرا غدا آلة للموت، ومصنعًا للألم، و منبعًا للأنين. الشاعرة في قصيدتها تحاكي صور المرض وآثاره وتنقلها بنزعة تأريخية ممزوجة بروح الاستسلام والذهول، فتقول:

في صمتِ الفجْر أَصِخْ انظُرْ ركبَ الباكين
عشرةُ أمواتٍ عشرونا
لا تُحْصِ أَصِخْ للباكينا
اسمعْ صوتَ الطِّفْل المسكين
مَوْتَى مَوْتَى ضاع العددُ
مَوْتَى موتَى لم يَبْقَ غَدُ

الناس غدوا أرقامًا لا أسماء، وصار الإحصاء يُعنى بالأرقام الميتة والأرقام المصابة بالعدوى، والأرقام السليمة المعافاة الباقية على قيد الحياة ولو إلى حين. هاجس الموت يخيّم على الجميع، شبح الخوف من العدوى قتل الروح قبل أن يقتلها الوباء، الذي لا يفرّق بين صغير وكبير. مات الغدُ في عيون مترقبيه، وصاروا أسرى الحاضر حاضر الكوليرا.

وتنتهي القصيدة بالمقطع الشعري النثري الآتي:

يا شبَحَ الهيْضة ما أبقيتْ
لا شيءَ سوى أحزانِ الموتْ
الموتُ الموتُ الموتْ
يا مصرُ شعوري مزَّقَهُ ما فعلَ الموتْ

الموت، ولا شيء سوى الموت، اسوادّ المكان، وتوقف الزمن عند عتبات الموت، ونازك الملائكة يعتصرها الألم على ما آلت إليه مصر وهي بين براثن الكوليرا، تنشد الخلاص لأهلها ولكن هيهات لها والوباء أقوى من أنْ يُوَاجَه بلغة الطبّ وقول الشعر دون ترجمته عمليًّا بممارسات وقائية علاجية. لقد أشارت الشاعرة إلى قسوة نتائج وباء الكوليرا في بلد فقير، ضعيفة هي بنيته الصحية، مترهّل النظام الوقائي فيه؛ وهو ما يشكل بيئة مثالية لإقامة البكتريا المسؤولة عن هذا الوباء حسب تعريف منظمة الصحة العالمية له: الكوليرا عدوى حادة تسبب الإسهال وتنجم عن تناول الأطعمة أو شرب المياه الملوّثة بضمات بكتيريا الكوليرا، وهي ما زالت تشكل تهديداً عالمياً للصحة العمومية ومؤشراً على انعدام المساواة

وانعدام التنمية الاجتماعية. وتشير تقديرات الباحثين إلى وقوع عدد يتراوح تقريباً بين 1.3 و4.0 مليون حالة إصابة بالكوليرا سنوياً، وتشير أيضًا إلى تسبب الكوليرا في وفيات يتراوح عددها بين 000 21 و000 143 وفاة بأنحاء العالم أجمع. الكوليرا مرض شديد الفوعة إلى أقصى حد، ويمكن أن يتسبب في الإصابة بإسهال مائي حاد، وهو يستغرق فترة تتراوح بين 12 ساعة و5 أيام لكي تظهر أعراضه على الشخص عقب تناوله أطعمة ملوثة أو شربه مياه ملوثة، وتؤثر الكوليرا على كل من الأطفال والبالغين، وبمقدورها أن تودي بحياتهم في غضون ساعات إن لم تُعالج. ولا تظهر أعراض الإصابة بعدوى ضمات بكتيريا الكوليرا على معظم المصابين بها، رغم وجود البكتريا في برازهم لمدة تتراوح بين يوم واحد وعشرة أيام عقب الإصابة بعدواها، وبهذا تُطلق عائدة إلى البيئة في دورة ارتجاعية مسببةً إعادة تفشي عدوى وباء الكوليرا مرة ثانية. وقد نوّهت منظمة الصحة العالمية إلى الخطورة الكامنة في عدم ظهور الأعراض لأيام على الرغم من بقاء جرثومة الكوليرا لأيام في أمعاء المصابين بها؛ وخلال هذه الفترة تزيد نسبة العدوى بين الناس دون أن يشعروا إلى حين ظهور علامات الوباء.[3]

عكستِ الشاعرة في قصيدتها تهالك الأنظمة الصحية الرعائية لبلد يرزخ تحت حكم استعماري غربي، أهمل صحة الشعب الفقير الجائع، تقاعس عن لملمة عدوى وباء الكوليرا الذي لا يحتاج سوى ساعات ليفتك بأرواح البشر بغض النظر عن أعمارهم، وتقرير منظمة الصحة عن هذا الوباء بدى واضحًا في قصيدة نازك الملائكة؛ فنتائج هذا الوباء كما بيّنتها الشاعرة تعود إلى ضعف الأجهزة المناعية لأجساد أهل مصر التي عجزت عن صدّ بيكتريا الكوليرا والتي لا تظهر أعراضها إلّا بعد أيام، فتبقى أجسادهم مصدر عدوى قوي للأجساد السليمة إلى أن تفتك بالجميع.

بالانتقال إلى صور الأوبئة في الأدب الغربي، نقرأ نماذج روائية، وشعرية، ومسرحية مختلفة تحدّثت عن أوبئة مختلفة ضربت مجتمعات معينة في أزمنة مختلفة، تطلعنا بعضها على الدور الذي تحمّله الأديب في مواجهة وباء ظهر في عصره، وبعضها الآخر يطلعنا على الواجب الاجتماعي والإنساني للأديب في التعامل مع الوباء، فنقف على الآليات والكيفيات التي انتهجها هؤلاء الأدباء في أداء مهماهم الإنسانية- قبل مهامهم الأدبية- في التكاتف الاجتماعي مع قطاعات حيوية أخرى للحيلولة دون تفشي الوباء أو زيادة أعداد وفياته، وللحدّ من انتشار عدواه عبر نتاجات أدبية توعوية تنقل للناس مفاهيم طبية علمية عن نوعية الوباء الذي يواجهونه، ويشرحون لهم سبل الوقاية الممكنة.

في كتاب "الموت الأسود" للمؤرخ الأوربي جوزيف بيرن Joseph P. Byrne يعرض "بيرن" توثيقات تأريخية أرشيفية لأوبئة وأمراض ظهرت عبر التاريخ ويفرزها زمنيًا، ويطرح وقائع معيشة من قصص حياتية واقعية تعكس الواقع الصحي المأزوم الذي عاشته جماعات بشرية في فترات زمنية معينة، وهو يركز بشكل رئيس على الطاعون الذي اجتاح أوروبا بين سنتي 1348 و1722م، إذ يشرح تبعيات تفشيه في المجتمعات التي أصابها. كتابه هذا يدخل ضمن نطاق العمل التأريخي/ الأرشيفي، فقد جاء عنوان الكتاب(الموت الأسود) للإشارة إلى مرض الطاعون الذي ضرب العالم الإسلامي والمسيحي على مدى ثلاثة قرون. وأشار "بيرن" إلى الخريطة الفصلية للأوبئة كوباء الطاعون، فهي غالبًا ما تبدأ بالظهور في الربيع، وتشتد في الصيف، وتنحسر في الخريف والشتاء، وربما تعاود الظهور في الربيع القادم، وهي تفرض الحصار على السكان عدة سنين في كل مرة.

---

[3] (تقرير مجلة منظمة الصحة العالمية عن وباء الكوليرا Cholera: المجلد: 88، مارس/ آذار، 2010، ص:161-240، https://www.who.int/topics/cholera/about/ar/ ، تاريخ الدخول: 30.05.2020.).

يستشهد الكاتب في موضع من مواضع كتابه بمقطع من مسرحية وليام شكسبير(هاملت) يقول فيه: " آلاف الصدمات الطبيعية التي تصيب الجسد". فتأمّل في هذا المقطع ليخلص إلى أن شكسبير كان يقصد مرض الطاعون بلا أدنى شك. ففي أثناء كتابة المسرحية الشهيرة هذه بين عامي 1599 و 1602م، كانت العاصمة لندن موبوءة بداء التعرّق الإنجليزي، ولم يكن قد مضى على وفاة ابنه" هَمنت" بمرض الطاعون إلا بضع سنين. وكان شكسبير على دراية تاريخية جيدة بالأوقات العصيبة التي وجّه فيها المرض ضربة شديدة(صدمة) حصدت أرواح ملايين البشر. ولهذا ورد مصطلح الصدمة للتعبير عن مرض(Plague طاعون)، وقد ورد في تقرير منظمة الصحة العالمية عن وباء (الطاعون Plangere): هو مرض معد تسببه بكتيريا حيوانية المنشأ تدعى اليرسنية الطاعونية وتوجد عادة لدى صغار الثدييات والبراغيث المعتمدة عليها. وينتقل هذا المرض بين الحيوانات عن طريق البراغيث المعتمدة عليها. ويمكن أن يكون الطاعون مرضاً وخيماً جداً لدى الإنسان، ولا سيما عندما يتخذ شكل طاعون إنتان الدم (عدوى تصيب جهاز الدورة الدموية بسبب دوران بكتيريا المرض في مجرى الدم) والطاعون الرئوي الذي يتراوح معدل الإماتة في حالاته بين 30 و100٪ إن تُرك من دون علاج. ويكون الطاعون في شكله الرئوي ممبتاً على الدوام ما لم يُعالج في وقت مبكر ويكون معدياً بوجه خاص ويمكن أن يسبّب أوبئة وخيمة بانتقاله من شخص إلى آخر عن طريق الرذاذ المنتشر في الهواء. وتسبّب الطاعون تاريخياً في اندلاع جوائح واسعة النطاق أسفرت عن ارتفاع معدلات الوفيات، وكان معروفاً باسم "الموت الأسود" خلال القرن الرابع عشر بعد أن حصد أرواح أكثر من 50 مليون شخص في أوروبا. أما اليوم فإن الطاعون مرض يسهل علاجه بواسطة المضادات الحيوية واتخاذ التحوطات القياسية للوقاية من الإصابة بعدواه.

الذي يُعدّ جائحة أمام بعض مصطلحات الأمراض أو الأوبئة التي لم ترتقِ لمرتبة جائحة بحكم انتشارها المحدود ضمن منطقة جغرافية محدودة تضم جماعات بشرية قليلة ولفترة زمنية معينة، مقارنة مع جائحة الطاعون الذي ينتشر لمناطق جغرافية أوسع ويمتد لعقود وعقود أو حتى قرون(بيرن، 2014: 14-15).

يرى مؤلف هذا الكتاب أنّ وباء الطاعون حفّز على نشر أنواع معينة من الأدب كانت خلاصة نصائح الأطباء، واستعرض في كتابه مجموعة من النتاجات الأدبية لأعلام اجتماعية تحتلّ مراتب وظيفية مختلفة في مجتمعها آنذاك، حاول من خلالها طرح فكرة توثيقية عن وباء الطاعون في فترة مؤطرة بزمان ومكان معينين. فقد ألّف بعض رجال الدّين كتبًا وعظية توعوية هي خلاصة إراشادات الأطباء وتوجيهاتهم للحيلولة دون تفاقم الأمراض والأوبئة، كما دعوا فيها إلى وجوب التحلي بتعاليم المسيحية الداعية إلى الفضيلة والاستقامة، فمثلًا، ألّف روجر فنتون Roger Fenton كتاب(عطر مضاد للطاعون الكريه Perfume A against the pastilence)بناه على آية سفر العدد التوراتي. وكتب نيكولاس باوند Nehcolas Bownd كتاب (أدوية الطاعون .Medicinse for Plague)، وفي مجال الأدب كتب الشاعر البريطاني وليام موغنز (William Muggins) قصيدته " لندن في رداء الحداد"، ونصح فيها قادة العاصمة قائلًا:

أدّوا هذه الأمور يا قادة مدينة لندن
عاقبوا الرذيلة الفاحشة، لتطرح وتنمو الفضيلة
عندئذ يتحول غضب الربّ العادل إلى رأفة
واعلموا أنه يعيد لأبنائه ثانية
صحتهم السابقة التي وهبها لهم
الطاعون والوباء واسطة للابتلاء
وبمشيئته المقدسة ينهيه أو يرسله.

يعرض"موغينز" عبر الاقتباس الشعري السابق واقع تفشي الطاعون واستفحاله بين الناس، ويراه غضبًا نازلًا من الله؛ عقابًا على ذيوع الرذائل والفواحش بين الناس بعد أن ماتت القيم والفضائل. ويرهن زوال الوباء هذا برجوع الناس إلى هديها، والتطبّب باستقامة المسيحية التي تكفل- على حدّ زعمه- عودةَ رحمة الربّ ورأفته. ولكنه لا يراهن على وعي الناس كثيرًا، ولا يثق بصدق توجههم وتضرعهم إلى الربّ- إن حصل-؛ فقد أشار في الجملة الأخيرة إلى أن الابتلاء الرباني قد يزول وقد يُرسَل مرة أخرى إن عاود الناس طرق مسالك المعصية(بيرن، 2014: 335-336).

ويرى الكاتب أنّ الطاعون أسهم في إبقاء المسارح خارج مدينة لندن ومحصورة بالمناطق البعيدة، وحظرت العروض في لندن سنة 1569 وسنة 1572. وتعَدّ ملهاة بن جونسون Ben Jonson الموسومة بِـ(السيميائي The Alchemist)، والتي كُتبت سنة 1610، تُعدّ المسرحية الوحيدة التي تعتمد اعتمادًا صريحًا على استخدام مدينة حلّ بها الطاعون مكانًا لها في العصر الإليزابيثي. وتتكشّف حبكة المسرحية في لندن التي جُرّدت من طبقتها المالكة بسبب الطاعون. نقرأ الاقتباس الآتي المأخوذ من مشهد من مشاهدها :

اشتدّ المرض، فخاف السيد وهجر
منزله في المدينة وترك فيه خادمًا واحدًا

لقد حرص بن جونسون على توظيف الفن المسرحي في مواكبة مجتمدع مدينة لندن الموبوء بالطاعون، وحاكى المكان الموبوء في مسرحيته مشيرًا إلى الخوف المسيطر على الناس الذي دفعهم إلى الهروب التماسًا للنجاة من العدوى، فقد فطن إلى عجز أهل لندن أمامها، وضعف الإمكانيات الطبيعة والعلاجية والوقائية لهذه المدينة؛ ممّا أرغم الجميع على الهرب، وتحاشي أصحاب العدوى، وعزل أنفسهم في أمكنة بعيدة أكثر أمانًا (بيرن، 2014: 341-342-343).

في الفن الروائي، يمكن لنا أن نقرأ في رواية " الحبّ في زمن الكوليرا" للروائي الكولومبي جابرييل غارسيا ماركيز Gabriel García Márquez (1927-2014)، التي صدرت سنة 1985. تحكي هذه الرواية قصة حبّ معقدة بين رجل اسمه "فلورينتينو أريثا" وامرأة تُدعى "فيرمينا داثا"، قصة حبهما قديمة منذ المراهقة، واستمرت إلى ما بعد بلوغهما السبعين. تحكي الرواية، التي جرت أحداثها في نهاية القرن التاسع عشر، مجموعة من التغيرات الاجتماعية والسياسية والنفسية، وتسرد الحرب الأهلية التي دارت في منطقة الكاريبي ونهر مجدولينا في قالب روائي شائق، تقاطعت فيه لوعة الحبّ مع لعنة الحرب مقرونة بجائحة وباء الكوليرا.

يبدي الروائي ضمن سرديات الرواية قلق الطبيب "خوفينال" حيال الوضع الصحي المزري في سوق المدينة العام، فوباء الكوليرا كان قد تأتّى من مجموعة عوامل بشرية بامتياز لخّصها الكاتب بكلمات قلقة يشوبها الخوف المبطن من القادم على لسان الطبيب، فيقول:

"...وكقلقه من تلوث المياه، كان الدكتور خوفينال أوربينو قلقًا كذلك للحالة الصحية في السوق العام، ذلك الامتداد الفسيح مقابل خليج لاس إينماس، حيث ترسو سفن جزر الأنتيل الشراعية، والذي وصفه أحد الرحّالة الشهيرين بأنه واحد من أكثر الأسواق غنى وتنوّعًا في العالم. وقد كان غنيًّا ووافرًا وصاخبًا حقًّا، ولكنه ربما كذلك أكثر الأسواق مدعاة للقلق. كان يقوم فوق مزبلته ذاتها، تحت رحمة أهواء البحر المرتفع، حيث تجشؤات الخليج تعيد إلى اليابسة نفايات المجاري. وكانت ترمى هناك فضلات المسلخ المجاور من رؤوس مقطوعة، وأحشاء متعفنة، وروث الحيوانات الطافي بهدوء تحت الشمس في مستنقع من الدماء. وتأتي طيور الرخمة لتتنازع تلك الفضلات مع الجرذان والكلاب في ازدحام دائم وسط الغزلان وديوك سوتافينتو المخصية والمعلقة على أفاريز العنابر، وخضروات أرخونا

الربيعية فوق حصر على الأرض. وكان الدكتور أوربينو يريد جعل المكان صحيًّا بنقل المسلخ إلى مكان آخر، وتشييد سوق جديد مسقوف بقباب من زجاج ملون كذلك السوق الذي رآه في برشلونة، حيث البضائع والمؤن زاهية ونظيفة حتى إنّ أكلها يثير الحسرة. ولكن هذا جعل أكثر أصدقائه مجاملة يضيقون ذرعًا بأحلامه الخيالية. فهم يقضون حياتهم متغنين بأصلهم المجيد، وبمزايا المدينة التاريخية، وقيمة آثارها الدينية، وبطولتها وجمالها، لكنهم لا يرون سوس السنين الذي ينخرها. أمّا الدكتور أوربينو بالمقابل، الذي يكنّ لها حبًّا عظيمًا يجعله يراها بعيني الحقيقة، فكان يقول:

-كم هي نبيلة هذه المدينة التي ما فتئنا نحاول القضاء عليها منذ أربعمئة سنة، ولم نتوصل إلى ذلك بعد.

ومع ذلك فقد كانوا على وشك القضاء عليها. فوباء الكوليرا الذي سقطت أولى ضحاياه في مستنقعات السوق تسبّب خلال أحد عشر أسبوعًا بأعلى نسبة وفيات في تاريخنا... في الأسبوعين الأولين للكوليرا فاضت المقبرة ولم يكن هناك من مكان للدفن في الكنائس...ولقد اختلط هواء الكتدرائية بأبخرة سراديب الدفن غير محكمة الإغلاق، ممّا اضطرهم إلى عدم فتح أبواب الكتدرائية إلا بعد ثلاث سنوات... مذ أُذيع بلاغ الكوليرا، بدأ حصن الحامية المحلية بإطلاق قذيفة مدفع كل ربع ساعة، في الليل والنهار، إيمانًا بالخرافة الحضارية القائلة إن البارود يطهر الجوّ. ولقد كانت الكوليرا أشد فتكًا بين السكّان الزنوج، لأنهم الأكثر عددًا وفقرًا، ولكنها في الحقيقة لم تكن تأخذ اللون أو الأصل بعين الاعتبار. وتوقفت فجأة كما بدأت دون أن يُعرف عدد ضحاياها...عندما اكتشف والد أوربينو في نفسه الاختلالات التي لا شفاء منها، والتي عاينها ورقّ لها في الآخرين، لم يحاول حتى مجرد خوض معركة لا طائل منها، وإنما ابتعد عن الجميع كي لا ينقل العدوى إلى أحد" (ماركيز، 1991: 103-104-105).

نقرأ في الاقتباس السابق تداعيات وباء الكوليرا عبر سرد تشريحي للبنية التحتية الموبوءة التي أطلعنا عليها الطبيب أوربينو، ويعزوها إلى جرائم الإنسان بحق الطبيعة، وبحق الإنسان الآخر الباحث عن الأمن الصحي. يصور لنا الطبيب تخبط المجتمع وهو في بدايات مواجهته غير المتكافئة مع الكوليرا، فلجأ للخرافات، وبحث عن تعاويذ دينية، وحاول تقديم القرابين؛ لأجل الخلاص، ولكن كانت الكوليرا أقوى بعد أن فطن الجميع إلى مدى ضعفهم في مواجهة عدواها. يمكن لنا أن نقرأ أهمية هذا النص الروائي من منظور علاقة المعنى اللفظي بأمور أخرى مثل: الوضع أو الموقف الشخصي الخاص والمعتقدات السائدة واستجابات القارئ الفرد، أو من منظور علاقة النص بالبيئة الثقافية السائدة في حقبة القارئ الخاصة، أو بمجموعة مفاهيم وقيم معينة. فالمعنى اللفظي للنص يقبل التحديد، بينما تبقى أهمية الطرح المضموني في حالة تغير مستمر ولا تقبل التحديد؛ وهو ما يجعل النص حيًّا ومستحوذًا على اهتمام مختلف القرّاء في مختلف العصور(لرويلي، و: البازعي، 2002: 91). لقد وظّف صاحب الرواية تقنية سردية تُعرف بتقنية المعيار التفصيلي Scale ، وهي " المقدار النسبي للتفصيلات التي تُستَخدَم لتقديم مجموعة معينة من الوقائع والمواقف، طول السرد أو في جزء محدد منه بالنسبة للمواقف والوقائع المروية (برنس، 2003: 203). فقد أحسن الكاتب توظيف تقنية التكثيف السردي لمشاهد روائية دون غيرها، كما في مشهد وباء الكوليرا وتبعياته، وسخّر حذاقته الإبداعية في الفن السردي لأجل الإحاطة الموضوعية بالوباء القاتل، فكانت مادته الأدبية صورة فوتوغرافية واقعية للمشهد الحيّ المعاش، بل هي صورة طبق الأصل عن ثقافات الجهل والتخلف المعشعشة في ذهنية مجتمعه- آنذاك- في مواجهة الكوليرا، حيث وظّف الكاتب الاقتباس السابق لكي يظهر المسافة الرجعية التي تفصل بين تقدم عدوى الكوليرا وحصادها أرواح الآلاف، وبين التخلّف الفكري لدى عامة الشعب في مواجهتها. فالكاتب يصور الوعي الطبي المنشود في فكر الطبيب أوربينو، والتي

هي مفقودة في عقلية الشعب؛ ممّا سمح للوباء بالتفشي بوتيرة تسارعية مطردة وجهل الشعب.

وفي المحصلة، ما انفكت الأوبئة تحصد أرواح الملايين من البشر على مدى ستة قرون، فالجدري، والإنفلونزا، والحصبة، والتيفوس، والملاريا، والجذام، والكوليرا، والطاعون ما هي إلّا أوبئة كانت موجودة في بلاد الهند والصين منذ عهود ضاربة في القِدَم، ولكنها انتقلت إلى أماكن أخرى من العالم؛ لتصيب شعوبًا في أصقاع بعيدة عن المنشأ الأم لها. وكان لحركات التجارة، والحروب، وحركات انتقال عبيد إفريقيا، والغزو الاستعماري لإفريقيا والأمريكتين اليد الطولى في وصول الأوبئة إلى مناطق بعيدة جغرافيًّا عن موطن الوباء وفق ما أوضح ماكيز في روايته في إشارته إلى دور التجارة البحرية في نقل الأوبئة، ومثل ذلك أيضًا عندما هاجم الطاعون أوروبا كما هاجم مصر، ومعاناة الهند من الكوليرا كمرض متوطن كما عانت إنجلترا منه كوباء، وعانت الصين من الجدري الذي انتقل إلى أوروبا والأمريكتين، وعانت إفريقيا جنوب الصحراء من مرضَي الملاريا والحمّى الصفراء اللذين حصدا أرواح الملايين من الشعوب الأصلية في الأمريكتين. الوباء ما كان ليميز بين الأعراق، ولا يفرّق بين المجتمعات، ولا يعرف المسافات، ولا يولي أهمية لاعتبارات الزمن من حيث مجتمعات قديمة وحديثة، ولكن نمط الاستجابة اختلف بين الأزمنة الفارقة بين مجتمعات حديثة- أوروبا بخاصّة- ومجتمعات قديمة كالهند والصين ومصر(واتس، 2010: 23).

بالانتقال إلى رواية "الطاعون" للروائي الفرنسي ألبير كامو Albert Camus(1913- 1960)، نقرأ نتاجًا روائيًّا بمنزلة تأريخ أو توثيق حقائقي عن وباء الطاعون. هي رواية تدور أحداثها في مدينة وهران الجزائرية في أربعينيات القرن الماضي، عندما كانت الجزائر تحت وصاية المستعمر الفرنسي. يتخيل الكاتب الفرنسي كامو المدينة معزولة ومنقطعة تمامًا عن العالم الخارجي خشية من العدوى، ويصور الكاتب الخوف العام المسيطر على مخيلة الفرد الذي يبالغ في ممارسات العزل والانعزال عن الآخرين خوفًا من الإصابة بالوباء القاتل. ففي أحد مشاهد الرواية نقرأ قوله:

" في البدء، كان إغلاق المدينة يحتجز في الفنادق المسافرين الذين مُنعوا من مغادرة البلدة، ولكن كثيرين منهم، إذا رأوا الوباء يتفاقم، غدوا يؤثرون السكنى لدى أصدقاء لهم شيئًا فشيئًا. ومنذ ذلك الحين خلت الفنادق للأسباب نفسها التي امتلأت بها."(كامو، 1981: 116).

ونقرأ في مشهد آخر كمية الخوف الذي توجّسه أفراد المجتمع وهم يحولون مرافقَ المدينة مراكزَ حجرٍ صحيّ:

" وكان ريو ورامبير قد نظّما المحجر الصحي بدقة وحزم بعد أن كان مجرد أمر شكلي. وقد أصرّا بصورة خاصة على أن يُعزل أفراد أسرة واحدة أحدهم عن الآخر، حتى إذا أصيب أحد أفراد الأسرة دون أن يعرف، امتنع سائر الأفراد على العدوى... وقد تمكنت السيدة أوتون وابنتها الصغيرة من النزول في فندق المحجر الذي كان يديره رامبير. ولكن لم يكن لقاضي التحقيق مكان إلّا في معسكر العزل الذي كانت الولاية تعدّه آنذاك في الملعب البلدي بواسطة خيمات استعارتها من دائرة الطرق العمومية. أمّا الصبي فقد نُقل إلى المستشفى المساعد الذي أقيم في قاعة مدرسة قديمة نصبت فيها عشرة أسرّة." (كامو، 1981: 209-210).

إنّ عدسة الكاميرا السردية كانت موجهة صوب تعاظم العدوى بين النّاس، فصوّر لنا الروائي عبر كاميرته المتجولة لقطات ذات بؤرة تصويرية مركزة عَنَتْ بما بعد مرحلة تفشي الوباء، بينما صاحب رواية" الحبّ في زمن الكوليرا" كان أكثر تركيز على مشاهد ما قبل كارثة التفشي وعلى أسباب انتشار عدوى الكوليرا، فقد ركّز على الأسباب على حساب

النتائج، وهذا لا يعني أنه غفل عن النتائج لصالح الأسباب. إذًا، يطلعنا صاحب رواية الطاعون على طرائق مواجهة الوباء بوعي جماهيري أعلى من الوعي الذي قابلناه في رواية " الحبّ في زمن الكوليرا"؛ فعناية المجتمع بتدابير الحجر الصحي، وإبعاد المصابين عن المدى الفعّال للاحتكاك المعدي مع الآخرين، وغيرها من التدابير أظهرها لنا كامو بلقطات درامية تسارعية متوازية مع تسارع مشاعر الخوف والهلع لدى الناس، وتسارع وتيرة العمل الطبي لاحتواء الوباء. فالطاعون، وفق تصوير كامو، خرج عن سيطرة مؤسسات المجتمع؛ لسرعة انتشار عدواه، فكان الحلّ بحجر المصابين، وتجهيز أمكنة ملائمة لعزلهم، فهو قابل للانتشار مع الهواء كما قال ابن خلدون(ت. 808 هـ) في مُقدَّمَتِه، فقد عانى هذا الفيسلوف من وباء الطاعون، وكان قبل ذلك قد نال من والديه وشيوخه، وقد أرجع ابن خلدون هذا المرض إلى فساد الهواء كسبب رئيس أوّل، وعزاه إلى كثرة العمران الذي هو سبب لظهور العفن والرطوبات الفاسدة؛ ممّا يفسد الهواء، وبفساد الهواء يقع المرض في الرئة. فأمراض الطاعون وما يشبهها مخصوصة بالرئة وفق رؤية ابن خلدون التشخيصية، وهو يربط درجة فساد الهواء بدرجة المرض، فالفساد القوي يُكثر الحُمّيات في الأمزجة فتمرض الأبدان وتهلك.(ابن خلدون، 2004: 243/1 وما بعدها).

وفي المُؤَلَّف الموسوم بعنوان" أمراض الحيوانات المعدية وجائحة الوباء التالية بين البشر" لصاحبه الكاتب العلمي والمؤرخ الأمريكي المعاصر" ديفيد كوامن"، يعرض المشاكل العلمية والطبية بأسلوب رشيق، ليتحدث عنها في صيغة رواية مثيرة أو قصة بوليسية يصوغها بوضوح وأناقة، ويهدف من هذا العمل التحقيق بشأن الجراثيم المرضية التي تفيض عدواها من الجنس الحيواني المضيف لها لتصل إلى الجنس البشري وتتّخذ من جسده بيئة مثالية للتكاثر، فتصيبه أمراض جرثومية وبائية معدية قد تشكل تهديدًا لجنسه وتنذر بنفاد أفراده. و"كوامن" يفرق بين التوصيفات الطبية للأمراض؛ فأحيانًا تصدر كوباء، وأحيانًا تكون في شكل جائحة تغزو جهات العالم الأربع، كما حدث في جائحة طاعون القرون الوسطى، وأنفلونزا ما بعد الحرب العالمية الأولى، وجائحة وباء الإيدز التي لم تغادر العالم إلى الآن. ويحاول الكاتب عبر مؤلفه هذا أن يطرح مشكلة توصل الإنسان إلى وسائل ناجعة تحدّ من تفشي مثل هذه الأمراض الجائحة وانبثاقها بعد خروجها عن سيطرة الزمان والمكان الاحتياطات الأمنية والطبية والوقائية. يعرض كوامن قصص أسفاره على امتداد المعمورة لمدة خمس سنوات مع علماء البحث الميداني من جماعات اختصاصات العلوم الطبية والمناعية والنباتية والحيوية والبيولوجية وغيرها، باحثين عن مصادر الوباء وراء القرود في غابات الكونغو، والخفافيش في كهوفها في بلاد شرق آسيا، راصدين أمراض الماشية في مزارع الألبان في في هولندا المعروفة باسم: Bovine Spongiform Encephalopathyاختصارًا BES، متقصّين عن مزارع تربية الجرذان لأكلها في جنوب الصين. ويقدم كوامن لقارئه شهادات حيّة لمرضى قابلهم ممّن نجوا بحياتهم بعد مصارعتهم لأمراض وبائية جائحة ضربت بلادهم، كما كان يحرص على لقاء أقارب المرضى ممّن تُوُفّوا جرّاء أوبئة خطيرة دكّت نظام حياتهم البيولوجي، مثل فيروس إنفلونزا الطيور في الصين (H5N1) ، ومرض الجمرة (Anthrax) الذي يصيب الماشية والإنسان، وحمّى الإيبولا النزفية في أفريقيا (Ebola Virus Disease) اختصارًا EVD ، ومرض الهندرا (Scleroderma)في أستراليا؛ وهو مرض جهازي ذاتي المناعة مزمن، يؤدي إلى تليّف الجلد أو تصلبه، وحدوث تغيرات في الأوعية الدموية. هذه الأوبئة والأمراض يعرضها الكاتب في كتابه القصصي على شكل مادة علمية تأريخية، تشكل ألغازًا محيرة، بعضها حُلّ وبعضها الآخر لم يُحلّ؛ فبقي مستعصيًا على جهود أهل الاختصاص، ولتبقى معاناة ضحايا هذه الأوبئة من البشر باقية، يصورها كوامن كدراما حزينة.

هذا الكتاب يشرح الأمثلة والوقائع المتعلقة بهذه الأوبئة الجائحة، وينهض بها كي يشرّحها مخبريًا وبيولوجيًا، ومن خلال الأمثلة القديمة والمعاصرة يقدم كوامن تصوّرات أهل العلم عن الأبعاد التفهّمية للوباء وطرائق علاجها وتوقّيها. وقد قسّم فصول كتابه على خمس قصص موسومة بالعناوين الآتية:

حصان شاحب (ص13)، ثلاث عشرة غوريللا (ص57)، كل شيء يأتي من مكان ما (ص139)، وجبة عشاء في مزرعة الجرذان (181)، الأيل والببغاء، والصبي في البيت المجاور(ص229.)

وختم كتابه بفصل خاص يضم مصطلحات طبية مع شروحاتها لأسماء كثير من الأوبئة والجائحات والحيوانات والطيور ورموزها الطبية(ينظر: كوامن، 2014: 9-46-74). ويحمّل كوامن الإنسان النصيب الأكبر من أسباب حدوث الوباء وظهوره وتفشيه؛ لأن الإنسان يضرّ بيئته ويؤذي الطبيعة الأم. باختصار؛ كتاب الفيض يرفد أبحاث العلماء والباحثين في تقديم المادة العلمية من مصدرها مدعومة بنماذج وحقائق واقعية حاصلة، وهذا يسهم -من قريب أو بعيد- في إطلاق جرس الإنذار المبكر لأي هجوم محتمل للفيروسات الوبائية على البشر، كما يساعد في تقديم الإجراءات اللازمة لتفاديها، مع السعي إلى تجنبها قبل وقوعها.

الخلاصة

ما كان الأدب ليتخلّى عن وظيفته الاجتماعية في محاكاة الواقع، ومعالجة قضاياه على مختلف الأصعدة، فالواقع عهدة لدى الأدباء؛ يُعْمِلون فيه أقلامهم توصيفًا، ونقلًا، وتسجيلًا، وتصويرًا فوتوغرافيًّا، وأرشفةً، وتأريخًا؛ فينقلون القرّاء إلى قلب الحدث مميطين اللثام عن حقائق ووقائع ما كانت لتتكشّف لنا لولا نتاجاتهم الأدبية. ومع مرور البشرية عبر عصور مختلفة بأزمات وبائية تناوبت على الفتك بأرواح الملايين، وبعثرة أنظمة البشر، وتغيير سياسات بعض المجتمعات طبيًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا...، كان الأدب مواكبًا جيدًا لهذه الأوبئة، فعكف على عكسها ضمن فنونه المتنوعة؛ شعرًا، ونثرًا، وروايةً، ومسرحًا، وتأريخًا...إلخ. لقد أظهرت هذه الدراسة نماذج أدبية مختلفة تناول أصحابها موضوع الأوبئة بنزعة تسجيلية، وثّقت تفاصيل حيوية مهمة عاشها أناسٌ ضربهتم أنواع مختلفة من الأمراض الوبائية، فعكسوا في هذه النماذج أسباب الوباء، وأعراضه، وآثاره، وسُبُل الوقاية منه، وصوّروا أحوال الناس في مواجهة هذا الوباء. ولم يغب عن هؤلاء الأدباء أن يؤدوا دورهم الاجتماعي ؛ فكانوا يولون مطلق عنايتهم الأدبية للدور التوعوي الواقع على عاتقهم في تنبيه الناس إلى ضرورة التقيد بالقرارات الطبية والمؤسساتية التي تفرضها سلطات المجتمع عليهم، كما كانوا يهتمون بتقديم صورة تشريحية فيزيولوجية للوباء وآثاره على أجساد المصابين به؛ للتحذير منه. والدور الأكبر الذي مارسوه في أعمالهم انصبّ على تقديم النصح والإرشاد للناس في نطاق الإسهام في منع انتشار عدوى الوباء، والتشجيع على تقوية حسّ المبادرة الذاتية الفردية والجماعية إزاء سياسة الانصياع لتدابير الحجر الصحي. ومن جهة أخرى قدّمت الدراسة نماذج لأدباء عاشوا تجربة الوباء في أجسادهم، أو عاشوها من خلال تجارب غيرهم، فامتزج الشعور الوجداني بالشعور الاجتماعي، كما هو الحال عند المتنبي، ونازك الملائكة، وشكسبير وغيرهم ممّن مرّت الدراسة على توثيقاتهم الأدبية لأوبئة من مثل: الحمى، والكوليرا، والطاعون.

وقد خلصت الدراسة إلى جملة من النتائج والتوصيات، يمكن تلخيصها كالآتي:

- الأدب مرآة مجتمعه بغضّ النظر عن الأزمات والأوبئة والنوازل التي قد تعصف بهذا المجتمع.

- العملية التأريخية لا تقتصر على أهل هذا العلم، بل تتعداه إلى الأديب الذي يُنتظر منه نقل وقائع وحوادث عاصرها، أو قابل أناس عاشوها.
- الأوبئة لم تغب عن النتاج الأدبي؛ فلم يوفّر الأدب- على اختلاف فنونه- فرصة مواكبة أهل العلوم الطبية والصحية في رصد ظواهر مرضية أُجْمِع على وسمها بالأوبئة. وقد قرأنا تقارير طبية وفيزيولوجية ضمن أعمال أدبية لأعلام لم تنقصهم الحذاقة في توظيف أدبهم لعكس مظاهر مرضية معينة بقوالب مختلفة، كالشعر والنثر و الرواية والمسرح...
- أزمة وباء كورونا التي صنّفتها منظمة الصحة العالمية كجائحة؛ لسرعة انتشار عدواها في أغلب بلدان العالم، لفتت عناية المهتمين من أهل الاختصاص الأدبي إلى إمكانية ولادة أدب جديد يحمل اسم "أدب الأوبئة"، والذي هو مولود من رحم معاناة البشرية من فتك أوبئة كثيرة بها عبر عصور قديمة إلى يومنا هذا.
- أدب الأوبئة، المُزْمَع والمُنتظَرَة ولادته طبيعيًّا أو بعملية توليدية مبكّرة، يحتاج إلى نخبة من الأدباء ممّن هم على دراية واسعة بعلوم الطب، والعلوم الحيوية، وعلوم النظام البيئي الحيوي، وغيرها من العلوم التي تمكّن الأديب من حسن التعامل مع ظاهرة الأوبئة بشكل علمي يكفل عدم الخلط في تقديم الأعراض، والتوصيفات، والنتائج، ويضمن لهم القدرة على تقديم الوعي الاجتماعي للناس من على لسان أهل العلوم البيولوجية والطبية.

المصادر والمراجع:

ابن خلدون، ولي الدين عبد الرحمن بن محمد(2004)، *مُقَدَّمَة ابن خلدون*، تحقيق: عبد الله محمد درويش، ط 1، جميع الحقوق محفوظة للمحقق، توزيع: دار يعرب، دمشق.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي(من دون تاريخ)، *لسان العرب*(خمسة عشر مجلدًا)، طبعة صادر، دار صادر، بيروت.

برنس، جيرالد(2003)، *المصطلح السردي(معجم مصطلحات)*، ترجمة: عابد خزندار، ط 1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

بيرن، جوزيف(2014)، سلسلة الحياة اليومية عبر التاريخ: *الموت الأسود*، ترجمة: عمر سعيد الأيوبي، ط 1، هيئة أبو ظبي للثقافة والسياحة(مشروع كلمة)، أبو ظبي- الإمارات العربية.

الخياط، محمد هيثم(2009)، *المعجم الطبي الموحد*، ط 4، منظمة الصحة العالمية- المكتب الإقليمي للشرق الأوسط، مكتبة لبنان ناشرون.

الرويلي، مجيان، و: **البازعي،** سعد(2002)، *دليل الناقد الأدبي(إضاءة لأكثر من سبعين تيّارًا ومصطلحًا نقديًّا معاصرًا)*، ط 3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب.

صالح، خالد محمد، **و:محسن،** حسن حميد(2014)، *الظواهر الأسلوبية ودلالاتها في قصيدة الحمّى للمتنبي*، مجلة أبحاث ميسان، مجلد:10، العدد:20، مجمع كليات جامعة ميسان-العراق.

عمر، أحمد مختار(2008)، معجم *اللغة العربية المعاصرة*، ط 1، عالم الكتب، القاهرة.

كامو، ألبير(1981)، *الطاعون*، ترجمة: سهيل إدريس، ط 1، دار الآداب، بيروت.

كوامن، ديفيد(أغسطس/ 2014)، *الفيض: أمراض الحيوانات المعدية وجائحة الوباء التالية بين البشر(ج 1)*، ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمي، إصدرات سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والآداب، الكويت، العدد: 415.

ماركيز، جابرييل غارسيا(1991)، *الحب في زمن الكوليرا*، ترجمة: صالح علماني، ط 1، دانيه للطباعة والنشر، دمشق- بيروت.

المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين(1983)، *ديوان المتنبي*، دار بيروت للطباعة، القاهرة.

نازك الملائكة(من دون تاريخ)، *ديوان نازك الملائكة*(ديوان شظايا ورماد)، دار العودة، بيروت.

واتس، شلدون(2010)، *الأوبئة والتاريخ: المرض والقوة والإمبريالية*، ترجمة وتقديم: أحمد محمود عبد الجواد، ط 1، المركز القومي للترجمة، القاهرة.

الموقع الإلكتروني لمنظمة الصحة العالمية(تقارير وأبحاث موثقة عن أوبئة وأمراض من مثل: الحمّى، كورونا، الكوليرا، الطاعون...): https://www.who.int/ar/emergencies

Kaynakça

İbn Haldun. (2004). *el-Mukadimme*. Derviş. A. (tah). Şam: Daru Ya'reb.

İbn Manzur. (ts). *Lisanu'l-Arab*. Beyrut: Daru's-Sadr.

Prince. G. (2003). *el-Mustalah es-Serdi*. Abid. H. (çev.). Kahire: el-Meclisu'l-A'la Li's-Sekafeti.

Byrne. J. (2014). *Silsiletu'l-hayati'l-yevmiyye 'abere't-tarih: el-Mevtu'l-esvedu*. Ayubi. O. (Çev). Abu Dabi: Heyetu Ebu Dabi li's-Sekafe ve's-Siyahe.

Camus. A. (1981). *et-Ta'un. İdris*. S. (çev.). Beyrut: Daru'l-Adab.

Camp. D. (2014). *el-Feydu*. Emradu'l-heyevanati'l-me'diyye ve caihetu'l-vebai't-taliye beyne'l-beşer. Fehmi. M. (çev.). Kuveyt: el-Meclisu'l-Vatani li's-Sekafeti ve'l-Adab.

el-Heyyat. M. (2009). *el-Mu'cemu't-tıbbi el-muvahhed*. Beyrut: Munazzametu's-Sıhhati'l-Alemiyye.

er-Ruveyli. M. (2002*). Delilu'n-nakidi'l-edebi*. Fa: Daru'l-Beydai.

Salih. H. ve Muhsin. H. (2014). *ez-Zevahiru'l-uslubiyye ve delaletuhu fi kasideti'l-humma li'l-Mutenebbi*. Irak: Mecelletu Kulliyati Camieti Meysan.

Marquez. G. G. (1991). *el-Hubbu fi zemani'l-kolera*. Salih İ. (çev.). Beyrut: Danya li'Tibaeti ve'n-Neşr.

el-Melaike. N. (ts). *Divanu Nakiz el-Melaike*. Beyrut: Daru'l-Avde.

Muhtar. Ö. (2008). *Mu'cemu'l-luğati'l-Arabiyyeti'l-mu'asıra*. Kahire: Alemu'l-Kutub.

Mutennebi, A. (1983). *Divanu'l-Mutenebbi*. Kahire: Daru Beyrut Li'Tibaeti.

Watts. S. (2010). *El-Evbie ve't-tarih el-mered ve'l-kuvve ve'l-imberaliyye*. el-Cevad. A. (çev). Kahire: el-Merkez el-Kavmi li't-Terceme.

e kaynak. https://www.who.int/ar/emergencies (Erişim Tarihi: 04.01.2020)